مكتبة المحبة

ذبيحة الصليب

من خلال سفر التكوين

تأليف
دكتور راغب عبد النور

مكتبة المحبة

ذبيحة الصليب

من خلال

سفر التكوين

تأليف

دكتور راغب عبد النور

مجدا للثالوث الأقدس
الآب والابن والروح القدس الاله الواحد
آمـــين

تقديم وتعريف

اننا نكرز بيسوع مصلوبا :

وهى كرازة فى مفهومها ومدلولها ، غريبـــة على الناس كل الغرابة ، وجديدة عليهم بما لا عهد لهم به . لذلك لا نستغرب عثرتها بالنسبة لليهود المؤمنين بملك زمنى ارضى ، كما اننا لا نستغرب رفض هذه الكرازة من جمهرة الدعاة لفلسفة القوة والسلطة .

على ان الكرازة بيسوع المصلوب ، لا تعتمد كثيرا على راى النقاد ، فهى قضية لا تعتمد على وسائل الاعلان ، او على طريقة من طرق الدعاية . أو فى عبارة أخرى ، فانه لا يدخل فى برنامج هذه الكرازة رأى الناس فيها .. لكن هدفهـــا الحقيقى هو الأثر الايجابى الذى تتركه هذه الكرازة فى كل محيط ، حيثما كرز بالأنجيل وبيسوع المسيح مصلوبا ... ولا يغير من الحال أو الموقف اختلاف الثقافات أو البيئات أو المجتمعات ، أو اختلاف الأمزجة والأعمار .. كل هؤلاء ، يتحرقون شوقا الى هذه البشارة .. لأنهـــا قوة الله للخلاص . وعلى ذلك فاننا لا نستطيع أن ننجو من مسئولية الحساب فيما لو قصرنا فى توصيل هذه البشارة للنفس المتشوقة اليها .

ذبيحة الصليب :

ذبيحة شامخة وشاملة . فيها الكفاية وفيها الغناء والوفاء . تشراب بالمصلوب عالية ، تطل على المستقبل فتظله بالرجاء ، وتمتد جذورها عميقة فى التاريخ ، سواء فى نبوة أو فى رمز او فى ترتيب عبادة . بحيث تتسع اتساع اذرع المصلوب فتحتضن كل الناس بالمراحم من آدم الجد والى دهر الداهرين . أو فى كلمات اخرى ، ان الذبيحة لم تكن عملا استحدثته المسيحية ، انما هو حقيقة الهية ، آن أوان الكشف عنها ، وأنت بأغلى ثمارها حين حمل الرب صليبه وصعد به جبل الجلجثة ، وهناك صلبوه .

وكل كتب العهد القديم .. فى سطورها المكتوبة ، أو فى نظام عبادتها الرتيب ، أو فى ذبائحها المتنوعة .. كل هذه منفردة ومجتمعة ، أشارت الى هذه الذبيحة الحية .. مرة عن طريق النبوة واخرى عن طريق الرمز .

ضخامة المعنى :

أسطر قليلة تكفى لكى تصف حوادث الصليب . لكن ، المجلدات الضخمة ، وفى العصور المتتالية ، لم تستطع بعد أن تحيط بهذا الصليب العجيب .. سواء من جهة التعليل أو من جهة التحليل . وسواء من جهة الأسباب أو من جهة النتائج .. انه عمل فوق استطاعة الانسان ، فكيف ، وهل فى استطاعته أن يضع حدودا معينة لابعاد حب الله ؟ .. فما أعجب حب الله وما أعجب أعماله من أجل الانسان . لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية . ونتيجة لهذا العمل العجيب ، من يستطيع أن يحصر بالأرقام عدد الفوائد التى حفظها الهنا كنزا للانسان وميراثا له من أجل الصليب .

وعلى ذلك لا توجد مبالغة البتة ، ولو اننا وقفنا أمام المصلوب فى الجلجثة وحسبنا أنفسنا اننا أمام ما لا ينطق به ولا يسوغ

لانسان أن ينطق به .. واعنى من ذلك الأغوار العميقة لهذا الصليب العجيب ، والسر العظيم الكائن فيه .

هـــذه المحـــاولة :

اقتناعا منا بهذا الرأى حاولنا هذه المحاولة ، وهى أن نتعرف الى ذبيحة الصليب من خلال الصفحات الأولى من سفر التكوين لموسى النبى . وهى حافلة بالاشارات عن الصليب ، وفى بعض المناسبات كانت الاشـــارات فى وضوح التصريح وتفصيله . وكنا وما زلنا نسأل الهنا ، اثناء هذه المحاولة الا يشطح بنا الخيال فنحمل النص أكثر من احتماله . وفى نفس الوقت التزمنا بالخط الواحد .. ان الروح القدس الناطق فى الأنبيـــاء ، كان خلف كـــل الكتابات ، هادفا ومعلما ومؤدبا ، حتى يصل بنا الى ملء الاعلان فى ابن الله الوحيد .. فى ملء الزمان .

الله محبـــة

الله من اجل محبته خلق الانسان .

والله من اجل محبته للانسان ، ولكى تظل صلته بالانســـان قائمة ، كلم الآباء بالأنبياء .

والله من اجل محبته للانسان ، ولكى تظل صلته بالانســـان قائمة ، ولكى تظل صلة الانسان به على اساس سليم أرسل ابنه الوحيد ابنا للانسان ، فداء وخلاصا .

هذه الحقائق الثلاثة لا تنفصل عن بعضها . وكل حقيقة منهـــا هى برهان على الحقيقتين الاخروين . ولو اعترفنا بواحدة فلابد أن نعترف بالاثنتين الاخروين . كأنها الحلقات المتصلة ، والتى تستمد صدقها فى جملتها وتفصيلها من النص الكتابى (الله محبة) .

لو لم يكن الله محبة ، فما هو الدافع اذن عند الهنا لكى يخلق الانسان ؟ .. الهنا غنى بعواطف الحب الأبوى ، وهـــذا الغنى فى الحب كان دافع الخلقة ، لكى تستفيد من هذه الأبوة ملايين الملايين

من البشر . وبدافع من هذا الحب كان الهام الأنبياء ووحيهم ، لكى تشبع رغبة الهنا فى الانسان .. ثم تجسد ابن الله وصلب على الصليب : فى مثالية عجيبة ، والحب الالهى هو مفتاح السر .. ولا تفسير آخر يمكن أن يشفى ويروى .

كنا مقتصدين :

هذه الدراسة ليست شاملة لكتاب التكوين ؛ كما انها لم تستوف كل ما جاء فى السفر من نبوات ورموز . لكنا آثرنا ان نقتصر على الفصول الأولى من هذا الكتاب .. ابتداء من سقوط آدم حتى وقت تقديم الذبيحة بعد الطوفان . لأن هذه الفترة رغم . انها قد أشير اليها فى الوحى الالهى بشكل موجز ، الا أنها تعطينا صورة عجيبة عن عمل الله من أجل الانسان الذى رفض مشورة الله ، كما تشير الى ميثاق الله مع الانسان من اجل ذبيحة الشكر .

ذبيحة الشكر ، هى الذبيحة التى يرفعها الانسان لانه افتدى من الموت ، ولأنه ولد ثانية من الماء والروح .. انها الذبيحة التى تقدم فى الأرض الجديدة (كنيسة العهد الجديد) وعلى المذبح الجديد .

وعلى أساس هذه الذبيحة يقطع الرب عهدا ويعطى ميثاقا للانسان . ميثاق ضمان النجاة من الموت ، وضمان ميراث الحياة الأبدية .

ولقد قدمنا هذه الدراسة على أمل ان تكون نموذجا لدراسات أخرى .. وما أكثر الدراسات الأخرى التى يمكن ان تقدم فى نفس السفر ومن اجل نفس الغرض .. انها محاولات لكى نرفع القناع عن الأسرار ... وما أعجب أسرار الهنا فى كل ما كتب الأنبياء مسوقين من الروح القدس .

انها تقدمة ، نضعها عند قدمى المخلص .

والرب من أجل جوده لا يرفض حتى الفلسين .

الفصل الأول

والبسهما ...

« وصنع الرب الاله لآدم وامراته
أقمصة من جلد والبسهما » .

(تك ٣ : ٢٠)

انفتحت أعينهما

قبل أن يصنع الرب أقمصة الجلد لآدم ولامرأته حواء ، كانت قد سبقت ذلك بعض الحوادث التى تحتاج الى مراجعة تدرس وتتأمل ، ثم تحلل وتتعلم .

سجل الكتاب المقدس عن آدم وحواء قبل السقوط هذا النص (وكانا كلاهما عريانين . آدم وامرأته وهما لا يخجلان) تك ٢ : ٢٥ أما بعد التعدى والسقوط فان الكتاب المقدس يتحدث عنهما بقوله (انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان) تك ٣ : ٧ . وبعد ذلك وأثناء حديث الرب الاله لآدم ، قال الرب لآدم (من اعلمك انك عريان . هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ان لا تأكل منها) تك ٣ : ١١ .

معنى ذلك ان الانسان كان على حال واحد ، فى تركيبه وفى تكوينه وانشطته الوظيفية ، قبل السقوط وايضا بعده . وشىء واحد جد عليه بعد السقوط وهو الاحساس بالعرى .

الجديد على آدم وعلى حواء بعد السقوط **هو نوع الانعطاف ونوع الاشتهاء ... نوع الفكرة ونوع الرغبة . وهذه مجتمعة تشابكت وتلاحمت ، وكونت صورة للانسان ، ليست هى الصورة التى عهدها فى نفسه من جهة نفسه او من جهة الآخرين .**

من هذا نعلم أن التعدى أصاب الانسان بالتلوث على مستوى النفس الداخلية . ولم يكن قاصرا على مجرد فعلة خارجية ، وهى الأكل من ثمرة محرمة .

من أعماق هذه النفس صدرت انفعالات ، وهذه الانفعالات انعكست على النظرة وعلى أحكامنا ؛ كما انعكست على جميع الحواس ، انعكست على الجميع بدنس الخطية وبخبثها ، ولوثت الدافع ؛ الدافع الداخلى بأنانية شرهة .

ولقد وصف الوحى المقدس تعدى الأبوين الأولين بأن قال عن حواء انها (أخذت من ثمرها وأكلت وأيضا عن آدم بأنه أيضا (أكل) . **بمعنى ان الانسان احتوى فى جوفه ما كان ممنوعا ومحرما . ثم أبطنه وخبأه ، ثم امتزج به واتحد .**

معنى ذلك أن خطية الانسان أثناء التعدى وبعده ، استقرت فى أعماق النفس الانسانية . وان ما ينسب الى بعض الأعضاء الخارجية للانسان لا يزيد عن صورة من الصور . أما الخطية ، فلم تعد أمرا سطحيا ، انما لها جذور بعيدة الأغوار فى أعماق الانسان .

وعلى ذلك ، اننا ؛ لا نظنه علاجا للخطية ، حين نبتر يد السارق أو حين نفرض عقوبة الجلد على الزانى . لأن هذه الأخطاء لا تزيد عن كونها تعبيرات خارجية للأصل العميق جدا فى الانسان . ففى داخل الانسان توجد بؤرة للفساد . وعن هذه البؤرة تصدر كل أسباب الخطية . . . هذا هو القلب النجيس .

وفى نفس الوقت لا ننكر الأثر الذى يترتب عن التأديب والعقاب . فهو ان لم يعالج السبب الأصلى للخطية لكنه يساعد على منع أسباب الأباحية والفجور . (فقط لا غير) .

(فخاطا أوراق تين وصنعا لانفسهما مآزر) تك ٣ : ٧ .

ومع الاحساس بالعرى استجد شعور بالخجل .

وغدا الانسان فى حالة خجل من نفسه :

وهو خجل لا ينهى من امره لو ان الانسان اغمض عينـــه ، او اشاح بنظراته الى الافق البعيد . هذا الخجل هو تعبير صادق للدمار والبشاعة التى صار فيها حال الانسان الداخلية . وهى حالة لا يستطيع أن ينكرها ، كما لا يستطيع ان ينفصل عنهـــا . وكل الوســـائل التى يصطنعها الانسان تخديرا لاحساســـه او تجميدا لشعوره ، فانها عاجزة تماما عن أن تغير من واقع التدمير والتغريم والتجريم ... مسكين الانسان .

لعله حاول أن يغتسل ، ولعله حاول ان يهبط فى بعض اللجج ، لعله حاول الهرب الى الوادى البعيد ، او حاول الاختباء داخـــل الكهوف ... ورغم كل المحاولات ، وجد نفسه فى ذات المكان من المعصية والتعدى ... فهل من سبيل لكى يهرب الانســـان من نفســه .. ؟ ما اقسى الواقع ، وما اكثر المحاولات وما افشل النتائج.

وغدا الانسان فى حالة خجل من الاخرين :

عزت على الانسان نفســه . فلم يعد قابلا ان يبدو فى الصورة المشوهة الكئيبة التى اكتشـــفها فى نفسه . ولأنه حديث العهـــد بالخطية ، لم يعد قادرا ان يرى الاخرين فى نفس المســـتوى من التشويه الكئيب . خجلان من أن يراه الناس وخجلان من أن يرى الناس . (لانى عريان فأختبأت) .

هذه العقوبة (عقوبة العرى) تعتبر من اقسى انواع العقوبات، التى يجنيها الانسان ثمرة لمعصيته ونتيجة لكسره للوصية . **وانه لقضاء صعب على النفس الحساسة الرقيقة ان يكشف النقاب عن**

نقائصها وفجورها . وهى امور لو احتملتها مبطنة لها ومنطوية عليها ، الا انها لا تحتمل تجريدها من سترها ، لتكون فى مكان الاعلان والتشهير .. ومن غير أن نذهب بعيدا ، فان هذه العقوبة هى بعض ما يعانيه الخطاة الفجار ، يوم الدينونة العظيم .. سوف يفتح السفر ويفضح السر ، وسوف يقف الانسان كما هو على وسجيته وفى طبيعته ، وفى ذلك اليوم لا تنفع معه شفاعة او صناعة.

هناك تقليد يقول ان شجرة معرفة الخير والشر كانت فى نوعها شجرة من اشجار التين . وهو تقليد ليس ما يؤيده ، وايضا ليس ما ينفيه . ولعله تقليد استمد جذوره من قول الوحى ان آدم وحواء حاولا محاولتهما الأولى فى صنع مآزر من اوراق التين .

معنى ذلك ان المعدن الذى نستخلص منه سلوك التعدى ، لا يصلح مصدرا للستر والوقاية من نتائج التعدى . والدافع الذى يهوى بنا الى قاع السقوط لا نستطيع ان نتمسك به سببا للنجاة . بالوسيلة الأرضية سقطنا الى الحضيض ، ولا توجد وسيلة أرضية تستطيع أن ترتفع بنا من مستوى الحضيض . لكنها قادرة على أن تنزل بنا الى ما هو ادنى واحط .

وغدا الانسان فى حالة خجل من الله :

(فقال سمعت صوتك فخشيت لانى عريان فأختبأت) .

أين الانسان من مقياس الكمال الذى كان يتراءى به امام الرب الاله .. ؟

وبماذا كافأ الانسان حنان الله ومحبته ، أو كيف قابل رعايته وسهره .. ؟

والآن ، وبعد كل ما كان ، فبأى وجه يستطيع الانسان أن يلتقى بالهه .. ؟

هل هو خجل أم هو خوف أم هو كلا الاثنين معا .. ؟ ومهما تكن الأسباب ، فان الانسان بعد أن فقد من جانبه أسباب الوفاء والوداد، لم يعد قادرا على أن يلتقى بالرب الاله .

لكن أين هو المكان الذى يستطيع أن يختبىء الانسان من وجه الرب الاله (أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب أن صعدت الى السموات فأنت هناك وان فرشت فى الهاوية فها أنت . ان أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك تهدينى يدك وتمسكنى يمينك) مز ١٣٩ : ٧ — ١٠ .

فاختبأ الانسان فى السكون الدهرى وحاول ما استطاع المحاولة أن يلف نفسه بأكفان الموت ، لعله يقيم مانعا يمنع وصول صوت الرب الاله .. لكن ، كيف السبيل الى المستحيل .. ؟

وأخيرا تواجد آدم ومعه حواء أمام الرب الاله .. كما هما فى اقبح صورة كما فى اخبث معدن . ووقفا وقفة لا يرجى لأحد أن يقفها أمام الرب الديان ، لأنه لا يمكن أن تخفى خافية أمام الرب . وبدا منظرهما مخجلا وهما يتوشحان بمآزر التين التى لا تستر شيئا من واقع عريهما ونجاستهما ..

الانسان يعتذر بالاعـــذار

لا توجد كلمة لها جمـــال اللفظ وموسيقى النغم مثـــل الكلمة (اخطأت) التى يقولها الانسان معترفا ونادما وتائبا . ولا يوجد لهذه الكلمة بديل فى المعنى أو فى استدراك الأخطاء .

التقى الرب بآدم فسمع الرب من آدم مبررات ومغالطات تقوم حجة عليه أكثر مما هى حجة له . وبنفس الاسلوب دافعت حواء عن نفســـها .. فقال آدم (المرأة التى اعطيتنى هى أعطتنى من

الشجرة فأكلت) تك ٣ : ١٢ . أما حواء فقالت (الحية غرتني فأكلت) تك ٣ : ١٣ .

فى مثل اليسر الذى يقترف به الانسان الخطية ، فى ذات اليسر يجد العلة التى بها يتعلل ويعتذر بها عن خطئه . وعلى كل حال فانه أسوأ من الخطية ، عدم الاعتراف بها أو عدم الاحساس بجرمها .

هكذا كان جدنا القديم آدم .

على أن جدنا آدم لم يكن فريدا أو وحيدا فى الصورة والسلوك .

فنحن كلنا بمثل صورة أخرى لآدم فى كل ما تعدى فيه وفى كل ما عانى منه . وفى حديثنا السابق لم نكن نريد أن نشير الى حادث تاريخى قديم ، انما اردنا أن نبرز صورة حية ، لواقع مرير ، يكرر نفسه فى حياة كل واحد منا ، من غير استثناء .. لان الجميع زاغوا وفسدوا .. ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد .. هذه هى الحقيقة البسيطة والمجردة . والتى يتلامس معها كل انسان من واقع خبرته وممارسته اليومية . ومن هنا تبرز أهمية القصة القديمة الحديثة .. قصة آدم أو قصة الانسان .

الهنا لا يتنازل!

الانسان ..

الانسان تغير وتشكل وتلون .. وجرب أن يتنعم وأن يتلوى .. فخسر الكثير وتنازل عن مركز القمة وهوى الى الحضيض .

ورغم ذلك ...

ظل الهنا فى مكانه من الانسان عطوفا ، محبا ، جوادا .. ويملك الانسان فى حنان الهنا رصيدا ضخما من العواطف ، بشكل أن أنواع كل الخطية لا تستطيع أن تستهلك حق الانسان فى هذا العطف الشديد .

عز على الهنا أن يصير آدم فيما آل اليه .

وعز عليه ايضا أن يتركه للمصير الذى تفرضه عليه المعصية وكسر الوصية . هذا علما بأن التعدى كان قرارا من جانب الانسان قرره وهو فى كامل حريته واختياره .

والآن ، نحاول أن ننصت الى صوت الرب الهنا ، الصوت الذى بدد سكون الموت ومزق أكفانه . ننصت وهو ينادى الفرد منا (أين أنت) ؟ .. ولا بد لنا اذ نلتقط كلماته ، اننا نتلامس مع رنة الأسى ومع انة الأسف ..

من هذا النداء نعلم يقينا أن الهنا قد قرر قرارا خطيرا من أجل خلاص الانسان . ولقد كان لهذا القرار أسبابه الوجيهة والقوية . ومن هذه الأسباب ما كان انسانيا ، ومنها ما كان الهيا .. ومهما كانت الأسباب ، فان القرار كان اعلانا رائعا عن محبة الهنا (لأن المحبة قوية كالموت والغيرة قاسية كالهاوية ، لهيبها لهيب نار لظى الرب) نش ٨ : ٦ .

وصنع الرب الاله

أخطاؤنا كثيرة وعديدة . سلسلة طويلة تتلاحق وتتصل حلقاتها.

وان لم يتدخل الرب فى حياتنا بصورة مباشرة ، نظل فى طريق الظلام ، نضيف كل يوم الى خبرة الأجيال الطويلة ، خبرات جديدة فى الفساد والشر .

مما يسجل على آدم انه بعد ان كسر الوصية ، غدت حياته كلها اضافات جديدة من الأخطاء والمآخذ . ومما يؤخذ عليه انه حاول أن يصنع مآزر من ورق التين .

قبل ذلك كان بر الله له رداء وغطاء ، ثم فقد هذا الستر ، فحاول أن يستبدله بثوب من اختراعه ومن تصميمه .

بهذه السهولة استغنى الانسان عن الهه ، وبهذه السهولة استبدلها بأمور أخرى .

على ان هذه الأمور الأخرى التى تصورها الانسان بديلة لبر الله لا تزيد فى عموها وفى قيمتها عن أوراق التين الهشة العاجزة عن السداد وعن الوفاء . ان الانسان يعلم هذه الحقيقة ، وقد يدعى الجهل .. لكن علم الانسان او جهله لا يغير من الواقع المحزن لمأساة البشرية .

اما ربنا والهنا ومخلصنا ، فانه يعلم عنا اكثر مما نعلم عن انفسنا . ويحسب لنا نوع احتياجاتنا ومقدارها ، فى صورة ادق مما نحسب لانفسنا . وبناء على هذه المعرفة الواعية ، وايضا بناء على المحبة الصادقة ، فان الهنا صنع لآدم ولحواء ، اقمصة من جلد والبسهما . لان الرب هو الذى خلق وهو الذى جبر . وهو أيضا الذى ستر . .ومن غير الهنا جدير بأن يكون شافيا لنا وساترا؟ . .

وبدافع من غيرته الأبوية ، قبل الرب ان ياخذ مكان الطبيب من ابنه العليل ولهذا الدافع بعينه لم يقبل الرب ان يحمل هذه المسئولية اى شخص آخر . ولو تطوع بهذا العمل كائن آخر غير شخص الهنا المحبوب ، لنحاه الرب جانبا ... لأنه ليس أرق من الرب شعورا ، وليس اصدق منه حبا ، وليس أقدر منه عملا وانجازا .

وكما كانت خلقته فى منتهى الكمال ، ينبغى ايضا أن يكون ستره لنا بعد خطايانا ، فى مستوى لا يقل كمالا أو رواء .

ايمانا منا بهذه المبادىء ، نتعجب للذين يغيرون على الرب ويحاولون ان يفصلوا بينه وبين عملية اعادة خلقة الانسان وتصويب حياته من الأخطاء التى جدت عليه . انها ليست غيرة صحيحة تلك التى تحاول ان تفصل بين الاله الخالق والاله المعالج والمصوب .

لان علاج الانسان الساقط واعادته الى الحياة هو من صميم اختصاص الله وهو اجراء يناسب عواطفه الالهية نحو الانسان المسكين .

اقمصة من جلد

لم يكن ممكنا ان يمثل آدم امام الرب الاله ، وهو يستتر خلف ما لا يستر عوراته ونقائصه . فالبسه الرب — وامراته معه — اقمصة من جلد ، بها استترا امام الله وامام الانسان ، وامام نفسيهما .

واول سؤال يفرض نفسه هو « من اين جاء الرب بهذه الاقمصة الجلدية » . . ؟

ولا يسوغ لنا ان نجيب على هذا السؤال بجواب نظنه غير شاف . وهو القول بان الله قادر على كل شيء . ويمكنه أن يخلق هذه الاقمصة الجلدية .

سبب بسيط يجعلنا لا نقبل هذه الاجابة ، وهو أن الجلود تتوفر كساء لحيوانات كثيرة . فلا توجد الحاجة الى خلقة جديدة لأشياء تتوفر بالطبيعة فى اعداد ضخمة .

اما الاجابة الصحيحة ، فهى أن الانسان بعد ان سقط فى التعدى ، لم يفصل بينه وبين تنفيذ عقوبة الموت جرفيا وروحيا ، غير صدور القضاء بذلك على بديل برىء . فانزل الهنا حكم الموت على الذبيحة من الحيوانات ، فنجا آدم مؤقتا واستتر آدم بجلدها مؤقتا ايضا .

وعاش آدم بعد ذلك على هذا الرجاء . . الرجاء فى ذبيحة البرىء الذى ينجيه الى الابد من حكم الموت ، والذى منه ينال البر ثوبا وسترا . .

ان هذه الأقمصة الجلدية لها مدلول أبعد من مجرد الستر الخارجي . لأن قضية آدم كانت قضية التلوث الداخلي ، والتدمير الروحي ، والوقوع تحت ثقل دين ، دين لفداحته أصبح غير قابل للوفاء ..

وأقمصة الجلد كانت تشير الى ابعاد الذبيحة الحية في انجازها وفي وفائها ، فاستراح آدم بالايمان الى مفعول الدم الثمين والى مدلوله . فدم يسوع المسيح ابنه يطهر من كل خطية وقضى الرب عنا كل الدين اذ لم يكن لنا ما نوفي . وفي المسيح صار لنا بر الله .

من النص نعلم أن الرب صنع (اقمصة) أي اكثر من قميص . ومفهوم صيغة الجمع أن الذبيحة كانت تقدمة تتكرر في التقديم ، لينكرر في حياة الانسان مفعولها ومضمونها ، ولتعمل عملها في تعميق جذور الايمان ، في الذبيحة الوافية والشافية .. الذبيحة الواحدة الكافية في العطاء لكل احتياجات الانسان .

ليس خيالا حين اتصور آدم واقفا أمام الرب الاله مفكك المفاصل ، مرتعش الأطراف ، يرتجف ويهتز .. محموما ، ومهموما ومزوما ..

وهو في هذه الحالة التي لا يحسد عليها ينزل غضب الله في نار آكلة على ذبيحة أقامها الرب بين الانسان وبين غضبه .. فاحترقت الذبيحة ، ونجا آدم واستتر بجلدها .

هذه الصورة كررت نفسها ، في تفصيلات غريبة وعجيبة .

وكل الناس وقفوا وقفة آدم في رعشته ورعدته .. وكان غضب الله يعلن من السماء على جميع فجور الناس واثمهم .

في هذه الاثناء صعد الرب يسوع المسيح جبل الجلجثة ، وحمل صليبه كل الطريق وهناك .. (أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن ان جعل نفسه ذبيحة اثم) اش ٥٣ : ١٠ . وفي نفس الوقت شهدت

له النبوة ببره وبراءته (على انه لم يعمل ظلما ولم يكن فى فمه غش) اش ٥٣ : ٩ .

الظـــل المشـــتهى

عن طريق الصليب الذى لخلصنا الصالح ، اكتسبت النفس العارية سترا الهيا .

خلف المراحم استترت نفوس الملتجئين اليه ، ونزل غضب العدل الالهى على راس المخلص المحبوب ... الرب الذى من اجل السرور الموضـــوع أمامه احتمـــل الصليب مـــستهينا بالخزى . عب ١٢ : ٢ .

وأذاب الصليب كل أسباب الخجل والخزى والعار ، وصنع الرب فينا سلاما ، كما انه مكننا من سلامه العجيب . لذلك يصدق فينا هتاف كاتب النشيد (تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقى) نش ٢ : ٣ .

ليس هذا الكلام من قبيل الخيال والافراط فى التصورات المجازية . لكنه حقيقة ، لا يرقى اليها الشك ، كما انه عطية فى متناول الجميع .

ومع ان الامثلة على ذلك كثيرة ، فى كيفية تمتع الانسان بســـتر الهنا لجميع خطاياه ، الا اننا فى هذه المناسبة نشير الى عينة واحدة .. عينة من العبادة والممارسة ، قادرة أن توجد الانسان فى مركز عطية الهنا وستره العجيب .**وأعنى من ذلك جلسة الابن الى اب اعترافه .. فى هذه الجلسة ، وفى أثناء قبول نعمة السر بالصفح والغفران ، فان الانسان المعترف يستتر تماما عن جميع خطاياه وآثامه ، ويقيم الرب حاجزا بينه وبين استحقاق الدينونة . ولا شىء من الدينونة الان على الذين فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح .**

وبعد الاعتراف ونوال نعمة الغفران يذوب الرعب والخوف والديئونة ، ويغدو الانسان بريئا ومبررا فى دم المسيح .. هـذا الستر أو الظل هو الأمل المشتهى من كل نفس ، أن يوقى عن خطايانا، وأن يعفى عن آثامنا ، وأن الرب لا يعود يذكرها فيما بعد .

أمن الرعب ام من الحب

لابد للانسان أن يستشعر الخوف والرعدة ، وهو يمثل أمام الرب الاله ... لانه الانسان كاسر الوصية ، والمبطن للتعدى .

أما من ينعم عليه الرب بأسباب التوبة ووسائلها ، فانه من اجل الحب . يخاف على هذا الحب ان يخدشه أو يسىء اليه ..

الحب طرد اليأس ، ومكن الانسان من مخافة الله .

معنى ذلك أن سر التوبة هو السلم الذى يصعد بنا الى شركة الصليب ، ويمكننا من نعمة ستر الهنا وغفرانه . وبهـذا السر العظيم يكتشف الانسان المعجزة الخالدة الرائعة .. معجزة تجديد النفس البشرية بالصليب .

بالصليب اخجلنا الهنا واخضعنا واعجزنا ، ثم جذبنا وطرح رداء الهنا علينا ، وعمق فينا جذور مخافة الله ومحبته .. لقد بعث فينا هذا الحب العجيب (ونحن نحبه لأنه هو احبنا اولا) .

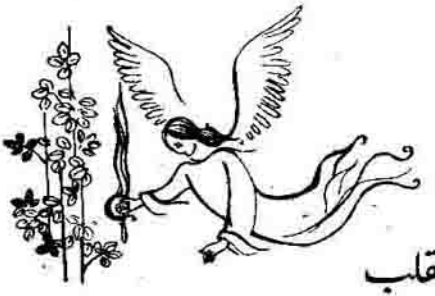

الفصل الثانى

لهيب سيف متقلب

(وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد فاخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الارض التى اخذ منها ، فطرد الانسان واقام شرقى جنة عدن الكروبيم **ولهيب سيف متقلب** لحراسة طريق شجرة الحياة) .

(تك ٣ : ٢٢ ــ ٢٤)

معرفة الخـــير والشر

كان ، وما زال من الأفضل للانسان أن يكون عارفا للخير فقط . لأنه لو اجتمعت لانسان خبرة الخير والشر معا . فانه ليس فى مكان القدرة على الاختيار ، فانه يفقد حاسة التمييز بين الأحسن والأقل حسنا ، كما أنه لا يعود مالكا لملكة الاختيار .

خبرة الخير تعنى الحرية والانطلاق مع سلام القلب وبهجته : وخبرة الشر تعنى عبودية استطاعة . فيتقيد الانسان الى خط واحد يجذبه الى الأدنى .

فأصبح الانسان مالكا للشر ومدفوعا فى أدائه ، ولم يعد قادرا على اداء الخير الذى يعلم عنه أو يسمع به ، أو يدعى اليه .

ما اقسى الأمر لو دخل الانســـان دائرة معرفة الشر . لأنه لو حدث ذلك ، فانه يحـــل فى دائرة الانسان حلول الســـيطرة ، المتحكمة المستعبدة . فيفقد الانسان حرية الاختيار وقدرة الارادة .. والذى لا يريده اياه يفعل .

ومن هنا نرى حكمة الله فى نصحه للانسان الا يعرف الخـــير والشر . ولعله من المفيد أن نشير الى انه كلما كانت خبرتنا الشريرة ضئيلة ، وقليلة ، كان مستقبلنا الروحى أكثر اشراقا ، وطريقه أكثر استقامة ووضوحا . والعكس أيضا صحيح ، فقد يرجع تعثرنا فى المستقبل البعيد الى بعض التفاهات التى كنا يوما نستسهلها ونستحليها ونستحلها .

لذلك كان برنامج الله من أجل مستقبل الانسان الا يكون عارفا للخير والشر .. ولذلك ايضا نرى الكنيسة جادة جدا ، فى ان تربط سريعا بين نعمتى سر المعمودية وسر الاعتراف ، بحيث لا تتوفر فرصة معرفة الشر لأولادها المعتمدين والمولودين ثانية . معرفة الشر تنطوى على قضية روحية تحتاج الى تدخل سريع من جانب الهنا لكى يفصل بيننا وبينها ، وايضا تحتاج الى علاج للاثار التى ترتب عنها فى المستقبل البعيد والقريب .

لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة

الرغبة فى الحياة دافع عميق فى الانسان ، ويظل هذا الدافع نابضا بالحركة ، رغم ضخامة الحجر الموضوع على القبر ، ورغم كثرة الأكفان التى تطوى مصيرنا .. ورغم العقوبة القاسية التى تحيط بالكيان البشرى ..

انها رغبة جارفة جامحة .. تطل من خلف الظلام وتعبر عن نفسها بكل وسيلة ..وفى أحيان كثيرة تعبر بالوسائل الخاطئة . الانسان فى هذه الحالة مثله مثل الغريق الذى يلوح بيديه ، لعله ينجو من الغرق ، وهذه المحاولة بذاتها تزيده هبوطا فى لجة الغرق .

شجرة الحياة كانت شجرة من أشجار الجنة . وقبل السقوط كانت من الأشجار التى تقع فى نطاق المسموح به من الأشجار التى يأكل الانسان ثمرها . وحين كان الانسان طاهرا ، كانت ثمار هذه الشجرة تحقيقا لرغبة الانسان الطاهر فى الحياة ، وكانت اشباعا لهذه الرغبة فى كل المجالات .

الحياة الأبدية ، شهوة تجد سبيلها للتحقيق فى حضرة الله ، وتعدو أمنية مستحيلة التحقيق بعيدا عن الرب الاله (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك انت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) يو ١٧ : ٣ .

وبعد أن سقط الانسان وانفصل عن الله ، عاش التلوث والنجاسة والانانية من غير حدود ، ومن غير رادع . لكن الرغبة فى الحياة كانت وما زالت قائمة فيه ، تحاول أن تعبر عن نفسها بوسيلة من الوسائل .

الحياة الأبدية كانت أملا نتمناه ونشتهيه . والنجاسة كانت واقعا نرغبه ونحبه وننجذب اليه . وبعد أن أخطأ الانسان ظهر حاويا لمزيج من المتناقضات . به رغبة أن يملك الحياة الأبدية وليست به رغبة أن يتنازل عن النجاسة ولذاتها .

من هذا التناقض والتصارع الذى كان فى داخل الانسان ، كان الانسان متفرجا ومشاهدا ، ولم يكن يملك أكثر من ملكة المشاهدة . انها دوافع وانفعالات أبعد من سيطرته وتحكمه ، وفى أكثر الأحيان كانت تحكمه وتصرعه .

وكان الخوف أضخم الخوف . .

ان الانسان ، وهو فى حالة النجاسة ، يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ، ويأكل منها ، ليحقق لنفسه فى صورة ما ، ما يشتهيه لنفسه من الحياة . مع الاحتفاظ بداخله ، وبالقلب النجس ، وبدافع الشر والخطية . . هذه هى أبدية الشر . وهى النتيجة التى تريد الحية أن نحققها للانسان بعد أن تعدى . وهى أيضا النتائج التى لا يقبلها الهنا خالقنا ومخلصنا ، لتكون مصيرا لأحبائه وقديسيه .

فكان لابد اذن من اجراء ، ومن عمل يقيم فاصلا بين الانسان وبين شجرة الحياة .

الخدعة الكبرى

هذه هى الخدعة الكبرى التى اخترعها الانسان فى مساره الطويل . وهى أن يفصل بين ما يطوى ويهوى (علما بان الداخل

كله خراب وشر ونجاسة) وبين ما يصطنعه من الخارج من أساليب .. تحاول أن تتلون وتتشكل .. وتقترب من القداسة شكلا وتصورا .

الهنا يرفض هذه الأشكال والألوان الزاهية .. رغم انها فى بعض الأحيان تأخذ أشكال التصوف والعبادة .

انه يريد القلب .. يريد القلب كله ، يقدم له عطية وتقدمة ، ليعيده الرب الينا طاهرا ونقيا . لأنه ان عولجت القضية من أساسها ومن اسبابها ، استقامت النتائج .

على أنه توجد خطورة تهدد الانسان فيما لو اقنع نفسه بسلوك القداسة ، وترك قلبه ونياته على حالهما من الرداءة والشر . وهى ان الانسان فى هذه الحالة يحيا الى الابد وهو داخليا لم يتطهر ولم يغتسل قلبيا . وهو بهذه الطريقة العوجاء يباعد بين نفسه وبين عمل الله الداخلى فى تجديد النفس وتطهير القلب . وفى هذه الحالة فان الأبدية فى الظلام الابدى .. ستكون مصير الانسان واستحقاقه .

ومع ان الانسان اخطأ وكسر الوصية ، واستحق الموت الأبدى ، لكن الهنا الحنون لم يتنازل عن مكانه . ولم يتخل عن الانسان . وانه ليرغب صادقا ان يجنبه هذا المصير فى الظلام الأبدى ، ذلك لأن دافع الحب الأبدى كان العلة فى خلقة الانسان ، وهو ايضا القوة الكامنة خلف كل اجراءات النعمة ، التى استخدمها الرب الاله من أجل خلاص النفس البشرية .

لا نستطيع أن نتجاهل النهاية المؤسفة التى انتهى اليها الانسان ، وتوصف هذه النهاية فى كلمات واضحة (ويل للامة الخاطئة الشعب الثقيل الاثم نسل فاعلى الشر . أولاد مفسدين . تركوا الرب استهانوا بقدوس اسرائيل ارتدوا الى وراء . على مم تضربون بعد . تزدادون زيغانا كل الرأس مريض وكل القلب سقيم من اسفل القدم الى الرأس ليس فيه صحة . بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت ..) اش ١ : ٤ — ٧ .

ورغم ذلك فان الرب شخصيا يتقدم ويفتح باب الرجاء (هلم نتحاجج يقول الرب . ان كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج . وان كانت حمراء كالدودى تصير كالصوف) . اش ١ : ١٨ .

فاخرجه الرب الاله من جنة عدن

جنة عدن ، كانت تعبيرا عن استمتاع الانسان بحقوقه فى حنان الله ومحبته .

ثم تعدى الانسان فنزل وتنازل عن هذه المكانة . ولم يعد صاحب حق . .

ومجرد لقاء الرب بالانسان ، لم يعد الانسان مرحبا به ، كنت اقول انه اصبح رافضا له .

جنة عدن فضلا عن كونها مكان سكن آدم وحواء ، فانها تعبير ايضا عن حالة روحية . وبعد ان سقط الانسان فى تلك الحالة . ولذلك فانه لا يغير من واقعه التعيس كونه كان ساكنا فى الجنة او كان ساكنا خارجها .

وكان لابد لادم ان يوجد فى الظروف التى تعبر عن داخله المحطم . لعل هذه المواجهة تكون نافعة له من أجل خلاص نفسه.

ليس اشر على الانسان من عملية الالتفاف والهروب من مواجهة واقعة .

فاننا نلاحظه ، انه بكل الوسائل يدارى ويوارى . . او يعتذر ويحتج ، أو يتدرج ويتعرج . .

والا فكيف نفسر هذا السلوك . .

انواع المخدرات والمسكرات . . . او الوان الاسفاف والاسراف . . أو دروب التطرف والانحراف كلها محاولات . . يصطنعها الانسان لانه يريد أن يقنع نفسه انه ما زال يقيم فى الجنة . . .

ومما لا شك فيه ان الخداع سينكشف أمره فى يوم من الايام . وسيعلم الانسان انه طريد الجنة ، ولا يوجد لهذه الجنة بديل ، والعلاج الوحيد ، هو أن يعود نفس الطريق .. نفس الطريق الذى أوغل به بعيدا عن الله .. يعود نفس الطريق لكى يعود الى الرب الاله .

لكن طريق العودة يعترضه ..

لهيب سيف متقلب

تهتهات المستهترين أو أنات المتصوفين .. رغم اختلاف النغم فى كليهما — هما تعبير صحيح على أن ما ندفعه أو نتكلفه من أجل العودة الى مكاننا من محبة الله وحنانه .. هذا الثمن مهما كان يعتبر بسيطا وهينا .

الخروج من الجنة كان تنفيذا لحكم الموت ..

والعودة الى الجنة يكلفنا ما لا يقل عن الموت .. او هو الموت فى صورة من الصور . وهو ان ينزل فينا السيف النارى بترا وأماتة . وبعد ان نجوز من خلاله حكم الموت نبعث فى الحياة الجديدة . ونرث ونملك فى الجنة الجديدة .

بالتجسد والصليب غدا الناس المؤمنون بالأبن الوحيد ، شركاء له وتابعين له فى كل الطريق .. طريق انكار الذات وحمل الصليب، كل خطوة من خطوات الطريق .

وكما سار الرب الطريق حاملا لصليبنا ، نتبعه أيضا حاملين لصليبه .

والرب بالصليب اجتاز حكم الموت ، ونزل فيه قضاء السيف النارى عن جميعنا ، ونحن فيه ، وفى شركة آلامه ، ننجو ونوجد فى جدة الحياة .. وطريق الجنة الذى افتتحه الرب وعبده وهيأه ،

كلفه أفدح الثمن .. انظروا أية محبة اعطانا الاب حتى ندعى أولاد الله ...

ونحن فى شركة آلام الابن الوحيد ، نقبل فى حياتنا وفى أجسادنا حكم الموت ، كما من لهيب سيف نارى ، فيكون الصليب بالنسبة لحياتنا بركة متجددة . لاننا به نتنازل عن الكثير من الاضافات ، وبه ايضا نستقبل الكثير من البركات ..

بكل الوان الامانات ، نأخذ النفس لنجعلها خاضعة لعمل السيف النارى الذى بتر منها كل ما لا يمجد الله . واننا أيضا بعد ذلك نختبر بركة التجديد الداخلى . لأنه ان فنى انساننا الخارج فالداخل يتجدد يوما فيوما .

اقمصة الجلد كانت رمزا الى نصيب ابن الله من ذبيحة الصليب . والثمن الفادح الذى تكلفه من أجل الانسان . أما السيف النارى ، ففيما يرمز اليه من رموز ، فانه يرمز الى نصيب الانسان من صليب ربنا . لأنه بهذا الصليب صلبنا للعالم ، والعالم صلب لنا . وبهذا الصليب يتمكن الانسان من نصيبه من الحياة . لاننا (مع المسيح صلبت لاحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى . وما احياه الان احياه بالايمان ايمان ابن الله الذى احبنى ومات لأجلى) .

من هذه الزاوية ننظر الى كل النسكيات والزهادات ، والى الاصوام والتقشفات ، والى الوان التجرد والتنازلات .. الى كل ما نتكلفه وندفعه .. كل ذلك وما هو أبعد من ذلك ، هو وسيلة من وسائل تطبيق شركة صليب ابن الله وشركة آلامه ... لتكون لنا شركة الحياة الأبدية .. واما شركتنا نحن فهى مع الاب ومع ابنه يسوع المسيح .

الفصل الثالث

قايين وهابيل وقربانهما

« وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا فى الأرض وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من اثمار الأرض قربانا للرب وقدم هابيل أيضا من ابكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب الى هابيل وقربانه ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر .. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سسقط وجهك . ان احسنت افلا رفع . وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وانت تسود عليها » . (تك ٤ : ٢ ــ ٧) .

قايين قدم قربانا

ان القربان الذى قدمه قايين لم يكن تقدمة تطوعية . لأننا نرى اخاه هابيل يقدم قربانا ايضا . وهذا الاتفاق فى تقديم القربان يجعلنا نجزم انه كان طاعة لتكليف كلفا به . وقد يكون هذا التكليف نتيجة وصية موروثة من الابوين او قد يكون طاعة لايحاء داخلى من قبل الله . لكننا نغلب الراى الأول .

وحتى فى حالة طاعة وصية الوالدين ، فان تقديم القرابين كان وما زال عملا يجد استجابة فطرية من طبيعة الانسان ومن دوافعه التلقائية .

وما دامت هناك وصية بذلك ــ وهذا هو الراى الذى نغليه ــ فاننا نتوقع مع الوصية تفصيلات وطقوس تقديم التقدمة . حتى لا يترك الأمر لاستحسان الانسان ورايه الشخصى .

وحين نقرأ عن قايين انه قدم من اثمار ارض قربانا للرب ، نخلص بنتيجة بالغة الأهمية ، ان قربان قايين انطوى على مخالفة للوصية . ولقد قدم عبادة حسبما راى واستحسن ، وليس بناء على طاعة قلبية .

ولو كانت خطية قايين قاصرة على هذه المخالفة ، لكان هذا سببا كافيا لرفض قربانه . لكن علينا الا ننسى ان هذه المخالفة ليس الا أول المخالفات . . والمخالفات الأخرى لحقت بها وتسلسلت فى تتابع الحلقات فى السلسلة الطويلة التى لا تريد أن تأتى عند نهاية . ولذلك فاننا لا نستغرب بعد ذلك قرار الهنا بألا ينظر الى قايين ولا الى قربانه .

وفى الحقيقة ، انه يعاب على الانسان حال الخطية ، بقدر أكثر مما يعاب عليه اعدادها . وهذه الحال — حال الخطية — قد تعبر عن حقيقتها بالقليل كمـــا قد تعبر بالكثير .. وهذا القليل أو ذلك الكثير هو نوافذ منها نطل على خراب الانسان ودماره .

وعلاج الانسان الخاطىء ، هو علاج لواقعه المريض ولخرابه الداخلى ، ولا يصلح علاجا ، ان تعالج الاعراض الخارجية . الاهم هو علاج الأسباب . وفى نفس التطبيق يصـــدق القياس فى علاج خطية الانسان .

محاولة للاعتذار

من سياق قراءتنا للقصة فى كتاب التكوين ، نقرأ عن هابيل انه كان راعيا للغنم ، وكان قايين عاملا فى ارض . ولأن هابيل كان راعيا قدم قربانه من ابكار الغنم وسمانها .. ولأن قايين كان فلاحا قدم قربانه من ثمار الأرض . وعلى ذلك يقول قائل انه لا غبـــار على تقدمة قايين ، طالما كانت كل ما يملك .. أو اثمن ما يملك .

الأصل فى القضية ان الانسان لم يعد مقبولا فى جملته وفى تفصيله . وكل ما يثمره الانسان من هذه الأرض هو حســك وشـوك . هكذا نبدو أمام الرب الاله ، فى رأيه وفى تقديره . مهما كان تقييمنا لهذه الثمار ، ومهما كان استحساننا لها .

ان قربان قايين كان تعبيرا فصيحا عن الوجود والكيان الذاتى الذى يفرض نفسه رغم رفض الله له . والانسان — اشهى ما يشتهيه — هو أن يقترب الى الرب الاله على أساس من استحقاقه الشخصى ، فتصير علاقة الانسان بالهنا ، انجازا يمدح من أجله الانسان ، وليست عطاء الهيا يخجل أمامه كل انسان .

قربان قايين هو تعبير صريح عن النفس المتعالية المتعجرفة.. النفس التى تتفضل على الهنا بعطاء أو بقربان .. كأن الهنا فى حاجة الى عبوديتنا . والنفس البشرية — حين تكون على هـــذه

الدرجة من الغطرسة — فانها لا تحس احساسا صادقا عن حاجتها الى الرب ، كما انها لا تلتمس فى اتضاع وتذلل لمراحم الهنا الغنية .

ما أعظم الفرق بين الاثنين .. النفس التى تقرع صدرها ولا تستطيع أن ترفع عينيها الى فوق ، والنفس الأخرى التى تتقدم اليه ، بيدين ممتلئتين بالعطاء ، وبقلب مفعم بالرضى ، لأنه تمم الوصية فى كمال الأداء .. فضيلة التواضع يمكن أن تكون اساسا صالحا لبناء كل الفضائل ، ورذيلة الكبرياء يمكن أن تكون بالوعة تبتلع كل الفضائل .

لم ينظر

مع تقدمة القرابين ، ترتفع عينا الانسان الى السماء كأنها تلتمس وتستجدى .. لعل الرب يتنازل بعلامة تنم عن الرضى والقبول . ولسنا نتصور قايين فى غير المنظر ، بعد أن قدم قرابينه . وساد السماء صمت ، كأن قايين لم يقدم قربانا . وعن هذا الصمت عبر الكتاب المقدس بأن الهنا لم ينظر الى قايين ولا الى قربانه . أى ان هذا القربان عجز عن أن يحقق شركة بين الانسان وبين الرب الاله .

بالنسبة لقايين ، لا جديد فى أمر . فلقد كان انسانا محروما من هذه الشركة قبل أن يقدم قربانه ، وظل كما هو فى حالة الحرمان بعد ان قدم القربان .

وهنا تقفز حقيقة على جانب من الاهمية . ليس موضوعنا كم قدمنا من أجل الرب ، لكن الأهم فعلا هو هل حققنا بما قدمنا اقترابا واصبحنا اشد قربا من الهنا أكثر من ذى قبل .. ان الرب شخصيا هو ما يجب أن يكون موضوع تفكيرنا واهتمامنا ، بحيث لا يشغلنا عن الهنا أى انشغال آخر مهما كانت أسبابه او مهما كانت أهميته .

قد يرضى الانسان عن نفسه لانه شديد الانشغال والاهتمام بأمور هامة جدا ، من أجل الله ومن أجل كنيسته .. لكن هذا

الانشغال لا ينهض مبررا للانسان فى تأجيل نوال نعمة غفران الخطايا . ان ثمار الحقل ، أو اجود الثمار ليست بديلة لهذه النعمة جزيلة المنفعة .. نعمة غفران الخطايا .

ما اخطر الباب الواسع لأن كثيرين يجدونه ويدخلون منه . انه باب قليل التكاليف من حيث مراجعة النفس والانفصال عن الخطايا المحبوبة ، انه باب يرحب بالنفس الانسانية كما هى ، ويوفر لها أسباب الكرامة والوجاهة والكبرياء .. رغم ان هذه النفس فى حالة خراب داخلى وان اسلوب هذا الباب الواسع يحفظ لهذا الداخل الموبوء حالة الفساد ، ولا يطالبه بأن يتحرك اى تحرك نحو التوبة .

من الخطر أن يحافظ الانسان على حالة الخطية . وأشد من ذلك خطرا ، هو ان يستتر الانسان بخطاياه خلف اعمال ، لا تتصل بالداخل بجذور التبكيت والندامة والتوبة .

هابيـــل

لست من انصار المحاولة التى تحاول ان تصف هابيل بأنه كان مختلفا عن قايين قبل تقديم الذبيحة . واغلب الظن عندى انهما كانا اخوين وكانا صنوين . كلا منهما ولد لادم وحواء بعد السقوط . ولكليهما توفرت نفس الظروف ونفس المناخ فى التنشئة من جهة الوراثة ومن جهة الاثار التربوية ، التى تنسب للبيئة والمجتمع . كل ذلك كان واحدا بالنسبة للاثنين .. ولا فرق ..

ولذلك لا نستطيع ان نرجع اسباب الاختلاف بينهما فى نوع القربان الى اى سبب آخر غير ان احدهما آثر أن يكون صادقا مع نفسه وأمام الهه فى هذه التقدمة (وهو هابيل) والثانى لم يرد ان يكون فى نفس المستوى من الصدق .

الفرق بين الشقيقين كان زاوية صغيرة جدا . وكل من الاخوين التزم بأحد اضلاعها . وبعد وقت غير قليل ، كانت المسافة التى

تفصل بين الشقيقين كبيرة ، لأن كلا منهما أوغل فى طريقه ، حتى لا نكاد نتصور ان هذين الاثنين كانا يوما صنوين واخوين شقيقين . لأننا أخيرا نواجهنا هذه الحقيقة ، **ان هوة كبيرة صارت تفصل بين الاثنين بحيث ان الهبوط والسقوط بالنسبة لهابيل أصبح أمرا مستعصيا ، وان الصعود بالنسبة لقابين امسى أمرا مستحيلا ..**

أبكار الغنم وسمانها

بهذا الوصف وصف الكتاب المقدس قربان هابيل . انه من ابكار الغنم وسمانها . وعن هذه الذبيحة قال الرسول بولس (بالايمان قدم هابيل الله ذبيحة افضل من قايين . فبه شهد له انه بار اذ شهد الله لقرابينه ، وبه وان مات يتكلم بعد) عب ١١ : ٤ .

من افادة الكتاب ووصفه لذبيحة هابيل انها من ابكار الغنم وسمانها نستشف انها كانت أكثر من ذبيحة . وقدمت فى أكثر من وقت . بمعنى ان العبادة عند هابيل لم تكن نزوة طارئة او انفعالا عارضا . لكنها كانت الحاحا مستمرا ، وتعبيرا صادقا عن حاجة الانسان الى الرب الاله فى كل حين . وفى كل المرات لم يغب عن فكر هابيل ولا عن وجدانه انه انسان مستحق للموت .

من هذه الزاوية كان هابيل مختلفا عن أخيه قايين أشد الاختلاف .. ولم يكن لديه أدنى شعور بالاستحقاق لشىء ، فيما عدا استحقاقه لحكم الموت .

الموت قضاء مرعب ومخيف . والرغبة فى شركة الرب الاله تظل ملحة فى الانسان مقلقة لسكون الموت الذى يلف الانسان ويكتنفه .

ومن هنا أشتعل فى الانسان أمل فى البديل .. البديل البرىء ، الذى يموت عن الانسان ويقتنى الانسان بهذا الفداء الحياة الفضلى . هذا الأمل التقى بوعد الهى ، فتحول الى ايمان حى ، فى الذبيحة الأبدية . وفى دم هذه الذبيحة يغتسل الانسان ويتطهر

(انضح على بزوفاك فاطهر) (ودم يسوع المسيح ابنه يطهر من كل خطية) .

لذلك . .

ومن خلال ذبيحة هابيل ، نلتقى برمز صريح عن ذبيحة ربنا يسوع المسيح فى الجسد . فداء عن جنس البشرية .

نظر الرب الى الذبيحة

عطاء الانسان — مهما كان هذا العطاء — لا تتوفر له اسباب القبول أمام الرب الاله . وحسبنا سببا وجيها للرفض ، ان هذا العطاء يصدر عن الانسان . . الانسان المرفوض شكلا وموضوعا.

والأمر يحتاج الى اعادة نظر . .

والأمر يحتاج الى اجراء خطير وجليل حتى يمكن أن يعاد النظر فى قضية رفض الانسان . وحتى يعود الانسان الى حالة القبول والرضى . .

وذبيحة هابيل بطريقة ما ، تشير الى هذا الاجراء ، الذى من اجله يصبح الانسان مقبولا ، وان الرب الاله غدا فى مكان الرضى عن الانسان من أجل هذ، الذبيحة .

بعد معمودية الرب ، سجل الاردن شهادة للاب عن الابن الوحيد **(هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت)** . وفى مكان آخر يقول يوحنا الرسول (لأنه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد **لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية) .**

وقف هابيل أمام ذبيحته ، والنار تشتعل فيها وترتفع منها الى السماء . . وكأنه يقف تحت اقدام المصلوب فى جبل الجلجثة . ومن جراحات الرب كانت الأوعية تضخ دما طاهرا بريئا . ومع الدم النازف كان صوت الرب لكل انسان (قد أكمل) وهى عبارة قالها الرب بهتاف الترنم والنشيد . انها انشودة انتصار الفادى فى معركته الخالدة من أجل فداء الانسان وخلاصه .

بالايمان عاين هابيل احداث الصليب وعلمها وهو يقف أمام ذبيحته الحية .. ومن أجل هذه النظرة الايمانية ..

نظر الله الى هابيل

هذه هى اللحظة الفاصلة بين حياة شديدة السواد ، وبين حياة ناصعة البياض . ولم يتغير شيء فى هابيل غير انه كان بعيدا ومتغربا عن الرب الاله ، أما الان ، وبعد أن نظر اليه الرب ، أو تنازل بالرضى عنه ، فقد صار انسانا جديدا .

الجديد على البشرية ، ان الرب زرع صليبه فى أرض ، تنبت الشوك والحسك . فشمخ الصليب بعهده وفعله ، كما تعمق بجذور تأثيره . حتى اعماق النفس البشرية . فكان فاصلا بين عهود وأجيال تغربت عن الرب الاله وعانت من ذلك أشد العناء ، وبين عهود أخرى اقتربت من الرب الهنا بالصلح والصفح .. وسعدت أعم ما تكون السعادة واشملها .

من أجل الصليب ينظر الرب الى كل انسان .. ويتحنن على كل انسان .. وفى الصليب أصبح طالبو التوبة مستحقين للغفران ، والساعون نحو الرب يجدون الأذرع الأبدية مفتوحة وناطقةبالترحيب الالهى (تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا اريحكم) .

لا توجد سعادة ، تدنو من سعادة هابيل وهو يستشعر رضى الله وقبوله له . على اننا لسنا فى مكان أدنى من هابيل . فكل انسان يقترب من مراحم الله على اساس الصليب والفداء العجيب ، فان هذا الانسان يغمر بلجة محبة الله ، كما انها تنسكب فى قلبه بالروح القدس .

ان أحسنت أفلا رفع

مراحم الله ..

ما هى ابعادها واتجاهاتها ، وما هو مدى استعدادها ، لسداد حاجة الناس .. ؟

هذه المراحم هى أشد ما نحتاج أن نتعرف اليه ، وهى أيضا أميز ما يميز الهنا الحى المبارك الى أبد الآبدين آمين

لقد اختصت هذه المراحم ، هابيل بالعطاء ، لكنها ايضا لم تكن قاصرة عليه ، أو قصرت مع الاخرين . وحتى قايين كان له منها نصيب ، لان جود الهنا وسخاءه ليست له حدود . ولم يغلق الباب دون قايين ، رغم انه اخطأ خطية البر الذاتى ورفض مشورة الله من جهة خلاص نفسه .

ذبيحة الصليب تكشف النقاب عن غنى لطف الله وامهالهوطول اناته ..

ليس مستغربا ، ان يخطىء قايين ، ويرفض نعمة الله المحفوظة له فى الذبيحة . وايضا ليس مستغربا على الهنا الحنون طبيعة غنى اللطف والأمهال وطول الاناة . لكن المؤسف والمحزن حقا ، ان الانسان يزداد اصرارا وعنادا ، مستهينا بغنى لطف الهنا وامهاله وطول اناته .

من حديث الرب الاله لقايين (ان احسنت افلا رفع) نستشف دعوة حانية رقيقة ، بأن باب الرجاء ظل مفتوحا أمام قايين . وكان فى امكانه أن يتمتع بكل البركات التى انسكبت على هابيل لو انه عاد وأحسن . .

على انه لا يوجد غير طريق واحد لكى يحسن الانسان ، وهو طريق الاحتفال بالذبيحة الدموية . وخلف هذه الذبيحة ، وخلف استحقاقها ، يستتر الانسان القديم ، ليتراءى امام الرب انسانا جديدا ، انسانا انفصل تماما عن أسباب عزه وعزوته واعتزازه . انسانا قبل فى نفسه حكم الموت ، ولم يعد قادرا ان يرفع رأسه مشرابا متفاخرا . لكنه قبل طريق بذل الذات وانكارها .

انه نداء لكل انسان عساه أن يحسن . وان استجاب ، فان الهنا يرفع عنه ، استحقاق حكم الموت ، كما يرفع عنه غضب الله المعلن من السماء على جميع فجور الناس واثمهم . ولن يوجد فرق بين انسان وانسان ، فالهنا يهب الحياة لكل من يقبل اليه ،

حتى لو قبل الدعوة فى الساعة الحادية عشرة . المهم جدا هو ان نقبل اليه قبل أن يغلق الباب . ولاننا لا نعلم متى يغلق الباب ؛ ومتى يكون الاوان قد فات ، فان الوقت المناسب لكل انسان هو الآن . وما بعد الان ، ليس فى حكمنا ولا تحت سلطاننا .. لئلا يأتى العريس فجأة ، والمستعدات يدخلن معه ، ويغلق الباب أمام غير المستعدات أو غير المتوقعات لمجيئه فجأة .

محاولة للتعرف

فى سطور سابقة تعرفنا الى هابيل ، وفى ايجاز تعرضنا لبركات الذبيحة الدموية التى قدمها والتى آمن برمزها .

وهنا نحاول أن نتعرف الى قايين رافض هذه الذبيحة والى النتائج التى تلاحقت متتابعة فى حياته .

١ — عبادة الهنا ليست هى الصورة التى نتصورها ، ونستحسنها ونخترعها . لكنها ترتبط ارتباطا مباشرا بأعلان الله حسب قصده . ومن يفشل فى ذلك ، فانه يفشل فى تحقيق الصلة بين الانسان وبين الرب الاله . وعبر الكتاب المقدس عن هذا الفشل بقوله (ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر) تك ٤ : ٥ .

٢ — فليس موضوعنا اذن ماذا يروق لنا وماذا نستحسن . لكن الأهم والأدق ، هو ماذا يريد منا الرب ان نفعل . وان فشلنا فى تحقيق ذلك فمعناه ان الانسان قد فشل فى تحقيق صلة بينه وبين الهه ، وانه قد فقد مساره فى خط جاذبية الحب الالهى ، وانه لم يعد مقيدا الى شمس البر ، بأى نوع من انواع الارتباطات .. (نجوم تائهة محفوظ لهـا قتام الظلام) رسالة يهـوذا ع : ١٣ فاغتاظ قايين وسقط على وجهه .

ممن اغتاظ قايين .. ؟ ليت غيظه كان منصبا على نفسه وعلى خطئه . ولو صنع ذلك لأحسن صنعا .

انه غيظ الكبرياء اذا مست ، وغيظ الذات اذا حطم صنعها . انه غضب الانسان الذى لا يصنع بر الله .

٣ ــ الخطية طبيعة شريرة ، كثيرة الاثمار والانجاب . ولو ان الانسان قبل واحدة من الخطايا ، محتضنا لها ، فانها سريعا وفى صورة مذهلة ، تأتى معها بأخوتها وزميلاتها فى النجاسة . حتى اننا احيانا نقف مشدوهين من الانسان .. متى استطاع ان يتعلم وان يتدرب على هذه الشرور .. ؟ ولا شك ، فان من اخطأ فى واحدة فقد اخطأ فى الكل .

هذا هو قايين ، بعد ان اغتاظ او غضب ، ابطن حسدا لاخيه ، ثم كراهية وحقدا .. ثم لم يتورع ان يكون ماكرا وخادعا وكاذبا .. ثم انفلت الزمام ، وانقلب وحشا ، وانقض على اخيه فى الحقل وقتله .

وحين سأله الرب بعد ذلك (اين هابيل اخوك) فبكل تبجح وكبرياء وعناد اجاب الهه (أحارس انا لاخى) .

كل هذا التطور والتطرف والتردى .. فلان قايين رفض ذبيحة الخلاص .. فأوغل بنفسه فى طريق المشردين التائهين حتى اصبح خائفا من كل ما يحيط به ، حتى من همس الريح او ظل الاشجار .

ما ابسط التقدم لذبيحة الصليب ..

وما افدح الثمن ، الذى ندفعه من حياتنا وراحتنا ، وابديتنا لو رفضنا هذه العطية الأبدية .

مسكين الانسان لو صدق فيه قول الكتاب (واحب الناس الظلمة اكثر من النور لأن اعمالهم كانت شريرة) .

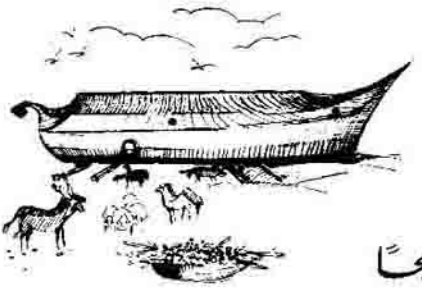

الفصل الرابع
وبنى نوح فلكاً ومذبحاً

« ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم . فحزن الرب انه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه . فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذى خلقته .. اما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب ..

فقال الله لنوح .. اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر .. وقال الرب لنوح ادخل انت وجميع بيتك الى الفلك لأنى اياك رأيت بارا لدى فى هذا الجيل ..

ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك ، وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه .. وبنى نوح مذبحا للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة ، واصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب فى قلبه لا أعود العن الأرض أيضا من اجل الانسان لان تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته .. » تك ص ٦ ، ٧ ، ٨ .

طريق قايين

ويل لهم لانهم سلكوا طريق قايين .

أصبح قايين للاجيال التالية مدرسة . مدرسة لها دعاتها ولها روادها ، لها تلاميذها ولها جمهورها .. الذين ينكرون السيد الوحيد الله وربنا يسوع المسيح . وما يفهمونه بالطبيعة ، كالحيوانات غير الناطقة ، ففى ذلك يفسدون (رسالة يهوذا) .

طريق قايين ، او اسلوب قايين ، هو أصل ونتائج . أو خطية اصلية تتفرع منها خطايا مرعية . والأصل او الخطية الأصلية ، هو أن الانسان يرفض ذبيحة الخلاص ، او لا يأتى بنفسه خاضعا تحت الصليب ، لتكون له نعمة العهد الجديد . ليكن مغمورا ومشبعا ، بعطايا العهد الجديد .

اما الخطايا التى تتفرع من الخطية الأصلية ، فهى كل ما يترتب عن ذلك وهى أن الانسان يتحرر من وصايا الرب ومن عمل نعمته فى التبرير والتقديس . فيغدو كالحجر الثقيل الذى يهوى هابطا (بعد ان فقد مكانه فى القمة) ويظل هابطا مسرعا فى الهبوط حتى أعماق الجحيم .

الخطية الأولى فى الترتيب وفى الأهمية ، ان الانسان يرفض الرب الاله .. يرفضه الها ويرفضه غافرا وماسحا لدموعه ، يرفضه أبا كما يرفضه محبا وراعيا ، بعد ذلك لا نستغرب التخبط والتردى (ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم) تك ٦ : ٥ .

فقرر الرب قرارا خطيرا وقال الله لنوح (نهاية كل بشر قد أتت أمامى ..) وهذا الحكم قد استنطقت كلماته شرور الناس الفادحة . أكاد أقول مع اعترافى بعجز العبارة ، ان شرورنا تكره الهنا المحب على عقابنا ، لاننا نصنع أمامه مالا يتفق مع طبيعته ولا مع غرضه من خلقتنا . فاننا بشرورنا نعطل برنامج الله وطريق اله فى خلاص النفس البشرية .

لذلك ، فانا هنا نلتقى بعينة أخرى من عناد الانسان .. وفى نفس الوقت نلتقى بقضائه الرهيب على الخطية .. بالموت والهلاك.

اصنع لنفسك فلكا

(اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر) تك ٦ : ١٤ .

لا نكاد نلتقى بحكم للموت الا ويعلن الله من خلال هذا الحكم أو معه ، عن الامل الحقيقى فى النجاة .. مع بيان الوسيلةالصحيحة لهذا الرجاء ..

شر الانسان وعناده .. كانا كأنهما طبقات من السواد الحالك والظلام الدامس تتراكم فوق بعضها لتجعل من الأرض مقبرة عفنة ونتنة ، اما مراحم الهنا الكثيرة فكانت ، وكأنها اشعة مضيئة ، للنور ، تخللت ظلام الانسان وكشفت عن الأمل الكبير الباقى لنا فى قلب الهنا . وقلب الهنا ، كان وما زال أكبر وأوسع من شر الانسان وتعديه . فامر الهنا نوحا ، (اصنع لنفسك فلكا) وهذا الأمر كان يتضمن دعوة للانسان ، كل انسان ، ان يصنع لنفسه فلكا ، لكى ينجو الانسان من القضاء الرهيب لأن (نهاية كل بشر قد اتت) .

ان مشروع صناعة الفلك كانت عملية ضخمة استغرقت مدة كبيرة من عشرات السنين ، كما انها احتاجت الى كفاءات أخرى

لم تكن متوفرة فى اسرة نوح . بمعنى ، انه اثنـــاء صناعة الفلك واقامته لم يكن نوح فى حالة عزلة والناس حـــوله لا يعلمون عن مشروعه شيئا . وان صناعة الفلك التى استغرقت عشرات السنين شكلت نوعا من الكرازة بهذا الفلك واهميته . ودعوة للناس ان يتوبوا وان يؤمنوا . ومع اننا لا نعلم الا قليلا عن خدمة نوح اثناء بناء الفلك الا أن الوحى يقول عن نوح انه كان (كارزا للبر) ٢ بط ٢ : ٢٥ . انها خدمة امتدت على مدى سنوات طويلة ونستطيع ان نصفها بأنها كانت خدمة صابرة ومثابرة . وهذه الخدمة نستخلص منها المعانى الاتية :

١ ــ الانسان استحل حرية فى التدمير والتعدى ، بشكل انه لم يعد ممكنا ان يدين روح الله فى الانسان ... كل الوسائط التى يمكن أن تربط الانسان بالهة قد قطعها وتحرر منها .

٢ ــ قضاء الهنا على خطية الانسان أصبح وشيك الوقوع . ولا سبيل للانسان لكى ينجو بخطيته من هذا القضاء الحتمى مهما كان اختراعه او كانت حيلته .

٣ ــ الله يدعو كل انسان ان يدين الخطية ، وان ينفصل عنها ، لعله يضع حدا للهو والاستهتار والفجور .

٤ ــ الهنا رتب ملجأ للانسان لكى ينجو بنفسه من الخطية ومن الحكم الصادر عليها . وهذا الملجأ هو الفلك الذى بناه نوح ، ومثاله الذى رتبه لنا مخلصنا الصالح . ولا توجد وسيلة اخرى للنجـــاة من قضاء الله .

٥ ــ فهل يؤمن الانسان بنوح كارزا للبر ، ويحتمى فى الفلك قبل أن يغلق الباب ، وقبل ان ينزل الطوفان ... ؟؟

هذه هى كرازة البر ، كما نستخلصها من قصة بناء الفلك .

مثاله يخلصنا

فى كتابات العهد الجديد ، يتحدث الينا الرسول بطرس فى رسالته الأولى مشيرا الى المعانى الروحية النابضة بالحياة فى قصة الفلك (اذ عصت قديما حين كانت اناة الله تنتظر مرة فى ايام نوح اذ كان الفلك يبنى الذى فيه خلص قليلون اى ثمانى انفس بالماء . الذى مثاله يخلصنا نحن الان اى المعمودية . لا ازالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح) ١ بط ٣ : ٢٠ — ٢١ .

هناك معنى بالغ الأهمية نستشفه من الفلك ، واسترشادا بأقوال الرسول بطرس .

وهذا المعنى هو تحقيق معنى الدفن والقيامة للمؤمنين بذبيحة العهد الجديد .

انها قضية بالغة الأهمية . فان الصليب والقيامة حقائق ، بالنسبة للمؤمنين ، عليها أن تحطم أسوار التاريخ التقليدية ، فتتكثف الأفكار فى قطرات من الندى الرطيب ، تتلاقى مع جراحات القلب وأشواقه الشخصية . ويغدو الصليب والقيامة عطية شخصية لكل انسان .

انها دعوة شخصية لكل انسان لكى ينجو من قضاء الموت ، ومن الطوفان المهلك . ووسيلة النجاة ليست فيما قيل عن الهنا المتجسد انه مات من اجلنا ، وبل أيضا فى القول الالهى اننا دفنا معه بالمعمودية . وللمعمودية آثار ابعد من خصائص الماء . فهى ليست ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح .

الفلك شكل وسيلة نجاة للملتجئين اليه ، والمختبئين فيه .

والمعمودية احتماء الكنيسة ، هى طريقنا الى شركة الصليب والدفن . وفى المعمودية ندفن كل ميراث ورثناه عن آدم ، كما ندفن العقاب والموت .

وعن طريق شركة الصليب والقبر ، نعاين فجر الأحد وبهجة القيامة ، عن طريق المعمودية ، وعن طريق الحفاظ على بركاتها .

المعمودية ، توفر للمعتمدين سردابا سريا ، وفى لمح البصر يصل هذا السرداب بين الذين يدفنون فى الماء وبين الذى دفن فى القبر من اجلنا . . . وفى اليوم الثالث قام .

الاحيـــاء الذين دفنوا
والأمـــوات الذين قاموا

حين هطلت أمطار الطوفان وتفجرت الينابيع فى الأرض ، احاط الغمر بكل نفس . كل الناس كانوا محاطين بالمياه من كل جانب ، وايضا نوح وأسرته لم يكونوا فى حالة استثناء .

لكن ثمة فارق واحد .

ان الذين اختاروا الدفن (الموت الاختيارى) فى الفلك او فى ماء المعمودية ، الذين اعتمدوا فى البحر والسحاب لموسى .... لهؤلاء جميعا كتبت النجاة .

أما الذين هربوا بانفسهم من هذا الاختيار .. طلبا للنجاة لأن تكاليف الصليب والدفن ، فى رأيهم كانت فادحة ، فهؤلاء جميعـــا فاتهم طريق النجاة ، وهلكوا .

من هؤلاء كل الذين رفضوا كرازة نوح للبر ، ومن هؤلاء ايضا فرعون وجيشه الذين طواهم البحر الأحمر ، وطرحهم على الشاطىء حطاما ، ومن هؤلاء ايضا الذين تصوروا حياتهم اغلى من ان توهب

لالهنا واعز من ان تبذل من اجله .. ان من يهلك نفسه من اجل المسيح يجدها .. حقيقة فوق الشك .

اعـــلى من القمم

وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء .

ما أشبه الأرض فى غد الطوفان بالأرض فى امسه .

قديما ، قبل خلقة الايام الستة ، وقبل أن يقـول الرب قوله (ليكن نور) (كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة) تك ١ : ٢ .

قبل أن يحتضن روح الله الأرض بالمراحم .. وقبل ان ينشر فيها الحياة .. كاملة البهاء والمجد .. كانت الأرض خربة وخالية تغلفها طبقة سميكة من الغمر ... هذا هو وصف الأرض قبل أن تمتد يد الهنا بالخلقة .

وايضا بعد أن تصاعد شر الانسـان ، وقرر الهنا الا يدين روحه فى الانسـان ، وباعد الانسان بينه وبين مراحم الله ، عادت الأرض الى خرابها ، تكسوها مياه الطوفان . وحتى القمم الشامخة التى نظنها بعيدة عن قضاء الله ، وحتى الاحتياطات الحـكيمة التى نصطنعها ونتصورها اسوارا ضامنة ... كل هـذه الشـوامخ او الموانع ، انحلت امام قضاء الله ، واضمرت كالشمع أمام نار غضب الله .

لكن الأمر الجدير بالتسـجيل ، ان الخراب مهما استشرى واستفحل ، فلن يطول أمده . لان مراحم الله تحاصره ، ولا تزال تحاصره الى ان تقتلع أسبابه . هو المعنى الذى نستخلصه من نص الكتاب (وكانت الأرض خربة وخالية .. وروح الله يرف على وجه

المياه) . وهو نفس المعنى الذى نلتقى به بعد أن قضى الرب الاله قضاءه على الخطية بالطوفان فان الكتاب يقول (ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك وجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء ورجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا) تك ٨ : ١ — ٣ .

وفى النص الحرفى الأصلى لا نكاد نجد فرقا بين مدلول كلمة روح وكلمة ريح .

ان نجاة الناس بالفلك من الطوفان كان ميلادا ثانيا للبشرية أو كان بعثا جديدا لهم ، بعد ان ذاقوا واقع الدفن . للبشرية . والمياه التى اغرقت هى نفسها التى غسلت وطهرت . وكانت سببا قادرا على البعث الجديد .

هذه نعمة الدفن ، وأيضا هى نعمة القيامة . يعيشها اولاد الله ويعاينون مجدها ، لأنهم بهذا الفلك صارت لهم حقوق شركة الكنيسة الجامعة .

الأرض الجديدة

ما زال نوح فى الفلك ، وما زال الفلك سابحا ، يسير طريق الايمان . لكن الرجاء كان يحدو المؤمنين ... الرجاء فى الأرض الجديدة .

فأرسل نوح حمامة ، دارت حول الفلك ، وعادت اليه لأنها لم تجد أثرا لليابسة ، كما لم تجد مكانا للراحة ... دارت وعادت ، وأيقنت ان الضمان الوحيد لحياتها وراحتها هو فى العودة الى الفلك والى حياة الدفن ... وخارج هذه الامانة ، موج وريح عاصف ، وموت أكيد .

لعله بعودة الحمامة الى الفلك ارتفعت تسابيح مشتركة ، وأناشيد روحية . ورغم أن الفلك انطوى على معنى الاقامة والحياة فى حدود وخلف أسوار ، الا انه بعودة الحمامة الى الفلك ، غدا لهذا المكان معنى آخر .. فيه الأمان وفيه الراحة والنجاة .

ثم أرسل نوح حمامة أخرى ، فى محاولة أخرى ، تحاول ان تستطلع الأمل المنشود . فدارت ثم عادت تحمل فى فمها ورقة زيتون .. انها رسالة أكدت للمؤمنين أسباب الايمان ، ان الأرض الجديدة بحياتها الجديدة ، لابد آتية . وهذا هو الدليل ، ان المياه تنحسر ، وان الحياة تنبت ، وتتأصل جذورها . وورقة الزيتون هى دليل الحياة الجديدة لان الهنا أجاز ريحا على الأرض ورجعت المياه روجوعا متواليا عن الأرض .

ثم انتهت أيام الغربة أو أيام الفلك . واستقر الفلك على الجبل وبست الأرض ، وفتح باب الفلك ، ودعا الرب نوحا ومن معه ، فأجاب بالطاعة ، وخرج نوح من الفلك (تك ٨) .

وعاش ثانية الأرض الجديدة وحياتها الجديدة ، بعد أن طهرت الأرض ، وتأهل نوح لهذه الحياة الطاهرة لانه عاش الاماتة والدفن فى الفلك . كل مدة الطوفان .

معنى ذلك ، ان المعمودية ، نعمة وبركة ، تمتد مع الانسان وتتصل ، لا تزال له ، ولا يزال مالكا لها ، تؤثر فيه ويتأثر بهـا ، الى أن يؤهل للارض الجديدة والسماء الجديدة .

ومع الدفع القائل بأن المعمودية اجراء لا يتكرر ، لكن الانسان فى بعض الأحيان يتنكر لهذه النعمة ، وينفصل عن بركاتها ، فاننا نقول انه رغم أن المعمودية طقس لا يتكرر لان الولادة لا تتكرر ، لكن التجديد يتكرر ، ودموع التوبة قادرة على أن تغسل وتطهر كل ما يجد على الانسان فى حياته بعد فترة المعمودية ... وكل هـذه الطقوس تستمد فعاليتها من عمل ربنا العجيب عنا على الصليب .

ان الظلام الذى أحاط بالصليب من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة ، وثورة الطبيعة العارمة ، وتشقق القبور — كانت ساعات من الطوفان أو لحظات من انزال عقاب الموت على العالم . لكن الرب وهو على الصليب شكل فلسكا ، التجأت اليه البشرية ، وفيه نجا الناس من الموت . لان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . . . بعد ذلك ولد النور من جديد ، وعادت الشمس الى ضيائها ، وجازت ريح ، وانتهى الطوفان ، وبعث الانسان للحياة الجديدة .

وبنى نوح مذبحا

توجد حاجة الى الذبيحة لكى يرتفع غضب الله ، ولكى تبتلع فى دخانها نار غضب الله .

وتوجد أيضا حاجة الى ذبيحة اخرى . يشيع مع دخانها تسابيح ومزامير الشكر ، لان الرب الاله أجاز ريحا . . وأجاز الغضب والعقاب . . ونجى الانسان .

توجد حاجة الى الذبيحة لكى يخلصنا الرب ، كما أنه توجد حاجة الى الذبيحة لان الرب خلصنا . انها ذبيحة الحمد والشكر . وبعد أن أصعد نوح محرقات على المذبح الذى بناه ، تنسم الرب رائحة الرضى . معنى ذلك انه ليس هدفنا من الصليب هو أن ننجو من العقاب فقط ، بل أيضا أن نكون بواسطة هذه الذبيحة موضوع سرور الرب ورضاه . فيتنسم الهنا من خلال حياتنا وتحركاتنا ، وانشطتنا ، فى كافة عبادتنا وخدمتنا ، رائحة الرضى .

اننا — نحن البشر — موضوع عناية الله ، لاننا موضوع محبته، ولاننا أيضا موضوع لذته . ليس فقط لان الهنا خلقنا على صورته ، بل أيضا لان الهنا بالتجسد صار جسدا فى صورتنا .

يوم العشاء العظيم كسر الرب جسده ، وقدمه لتلاميذه مأكل حق ، وأيضا قدم لتلاميذه دمه ، مشرب حق .

وبين عطاء ربنا يوم الخميس وبذل ربنا يوم الجمعة ، اختزن الهنا فارق الزمن ليترجم كل من الحدثين عن الاخر ، وبحيث نتلامس فى كليهما مع وحدة الهدف ووحدة الخدمة ، ووحدة البذل ووحدة الفداء . وحدة الخلاص ووحدة الشكر ... هذا سر عظيم .

ومن نافذة هذا السر العظيم نطل على أعظم الأسرار ، وبه نوجد فى أعمق العطايا وأبهج الاعلانات .

(لان هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين ، لمغفرة الخطايا . وأقول لكم انى من الان لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت أبى) (مت ٢٦ : ٢٩) .

فى ليلة العشاء ، تحدث الرب عن الفصح وعن الصليب ، ثم تحدث عن موضوع آخر يتصل بالصليب والفصح .

(حينما أشربه جديدا فى ملكوت أبى) . وهذا الأمر الذى سيقام فى ملكوت الآب هو ما حدث مع التلاميذ بعد القيامة . ويقول الرسول شاهد القيامة (نحن الذين أكلنا معه وشربنا معه) اع ١٠

ان الرب صنع العشاء ثانية بعد القيامة ، فى الأرض الجديدة وعلى المذبح الجديد . وتقبل منه التلاميذ هذا العشاء بعد القيامة فى فهم جديد وادراك جديد واستيعاب جديد .

بهذه الذبيحة نحن لحم من لحمه وعظم من عظامه . وبها نحن أعضاء فى جسده ، ونحيا حياته .

بها نؤدى الشهادة ، وعنها تنتم سيرتنا ورسالتنا .

انه شمول عجيب لملكوت السموات ، يبتلع ضعف الانسان

ويطرح جانبا خطاياه وتعثراته، ويشهد بأمانة وصدق عن عمل الله وعن معجزة الله فى البشرية الضعيفة المخذولة .

وبعد ، فما زال الرب يسعد بعصير الكرمة ، لان اعضاء جسد الرب : اى الكنيسة — يعيشون عليها ويتذوقونها فى بهائها ومجدها، فالرب ينتشى لنشوتنا ، ويسعده سعادتنا بعطيته ، ولاننا منه فى مكان الوحدة ، فما نشربه وما نأكله من دمه ومن جسده ، فانه يشاركنا نفس العواطف الطيبة .. بمعنى انه يشربه جديدا فى ملكوت ابيه .

فى كل كنيسة ، وعلى كل مذبح ترفع ذبيحة العهد الجديد . فان الهنا يتنسم رائحة الرضى . رائحة الرضى من أجل العطاء ومن أجل الرب ، ومن أجل النعم المكنوزة لنا فى ملكوت الآب .. فى كنيسته الجامعة المقدسة الرسولية .

رقم الايداع بدار الكتب ٧٣/٢٥٩٧

دار مطبعة العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ـ القاهرة